الجوف وتبوك والحدود الشمالية

تمثل المنطقة الشمالية وحدة جغرافية تغطي الهضاب القاحلة والصحارى الجزء الأكبر منهـا. ويتراوح ارتفاع الهضاب فيـها ما بين ٥٠٠ إلـى ٩٠٠م. ولئن كانت مساحات كبيرة من هذه الهضاب قاحلـة فإنّ هناك واحات خـضراء يقل ارتفاعها عن ٥٠٠م كـما هو الحال في واحات الجوف وفي بعض المناطق الغربية من تبوك.

وفي غربي المنطـقة الشمالية تغطي جبال الحجاز نحـو ثلث مساحة منطقة تبوك. تبدأ هذه الجبال بتلال ترتفع ٥٠٠م فوق مـستوى سطـح البحر ثـم يتزايد الارتفاع. وتعد هذه التلال دعامة لسلسلة جبال الحجاز الوعـرة التي ترتفع بعض قممها إلى ٢٥٨٠م، وهي قمم ناتئة من الصخور الجرانيتية وتغطيها حجارة رملية تأثرت بعوامل التعرية كثيراً. وإلى الشرق من جبال الحجاز توجد هضبة حسمى؛ وهي هضبة من الصخور الرملية تـرتفع بعض أجـزائها إلى ١٠٠٠م، وتـوجد عليها بعض الإرسابات الحصوية وتلال متوسطة الارتفاع، وهناك هضبة الحماد الحجرية الـتي تمتد في منطـقتي الجوف والحدود الشمالية.

ويعد بحر الرمال المتمثل في صحراء النفود، التي تمتد أكثر من ٥٠٠كم من الغرب إلى الشـرق شمالي حائل، من أهم الـظواهـر الجغرافـية في المـنطـقة الشماليـة، ويبلغ عرض حوض النفود ٢٠٠كم تقريباً، وتـغطي رماله مساحة تبلغ نحو ٦٠٠٠٠كم٢، وتغطيها الكثبان الرملية التي تتجه من الشرق إلى الغرب، ويصل ارتـفاع بعض هذه الكـثبان إلى ١٠٠م، وهي تـكون إحدى الـعقبات الصعبة التي تعـترض المسافرين، حيث تكاد تفصل بين نجد وبقية الأجزاء الواقعة شمالي المملكة.

وتوجد في المنطقة الشمالية أيضاً مساحات صغيرة من السهول تتمثل في سهل تهامة الساحلي على البحر الأحمر وخليج العقبة الذي يتفاوت اتساعه بين أقل من ٢كم في بعض المناطق و ٥٠كم في مناطق أخرى لا سيما الأجزاء الجنوبية التي تقع جنوبي أملج.

وتنتشر مجموعة من الأودية في منطقة تبوك وهي تنصرف إلى البحر الأحمر أو إلى الأحواض الداخلية. ويعد وادي السرحان من أهم الأودية بالمنطقة الشمالية، وهو في الحقيقة منخفض واسع يمتد من هضبة حوران جنوبي سوريا ويصل طوله إلى أكثر من ٣٦٠كم.

أمّا المنطقة الشمالية (ما عدا أجزاء المنطقة الشمالية المتاخمة للبحر الأحمر) فهو لا يختلف كثيراً عن مناخ المنطقة الوسطى، فهو مناخ صحراوي، صيفه جاف شديد الحرارة وشتاؤه بارد مع أمطار قليلة تختلف كميتها من منطقة إلى أخرى. وتسود الرياح الشمالية الباردة في فصل الشتاء وأحياناً الرياح الشمالية الغربية الممطرة، وتتعرض تبوك أحياناً لرياح جنوبية غربية خلال فصل الربيع تسمى الخماسين تتعدى سرعتها أحياناً ١٠٠كم في الساعة.

ويتفاوت متوسط درجة الحرارة السنوي ما بين ١٨,٣ْ مئوية (القريات) و٢١,٥ْ مئوية (رفحا) وتسجل أعلى درجات الحرارة في يوليو وأغسطس إذ تتخطى أحياناً ٤٥ْ مئوية. ودرجات الحرارة الدنيا تسجل غالباً في شهري ديسمبر ويناير وكثيراً ما تنخفض عن الصفر المئوي.

وتسقط الأمطار في فصلي الشتاء والربيع ولا يزيد معدلها السنوي على ١٠٠ملم في معظم أجزاء المنطقة الشمالية. ويصل متوسط عدد أيام سقوط المطر إلى نحو عشرين يوماً في السنة، وأكثر الشهور مطراً شهر يناير بمتوسط أربعة أيام. وتتوافر المياه الجوفية في المنطقة الشمالية، وتشتهر بالنشاط الزراعي لا سيما في منطقة تبوك.

وتتشابه العمارة التقليدية في المنطقة الشمالية إلى حد كبير مع أنماط العمارة التي تسود المنطقة الوسطى، ويرجع ذلك إلى تشابه الظروف المناخية، واستخدام الطين كمادة رئيسية للبناء. كما أن هناك تشابهاً كبيراً في تخطيط المستوطنات من حيث تلاصق المباني وضيق الممرات الداخلية فيها، وذلك لتشابه الظروف الاقتصادية والأمنية.

وتحتوي المنطقة الشمالية على عدد كبير من المباني الأثرية كالقصور والقلاع والمساجد التي تشير إلى ماض حافل

بالأحداث والحضارات. ولا ريب أن موقع المنطقة الشمالية على طريق الحج ما بين الحجاز وكل من الشام والعراق كان له أثر كبير في التطور العمراني في المنطقة.

وفيما يلي بعض أنماط العمارة التقليدية في مدن المنطقة الشمالية الرئيسية وهي دومة الجندل وتبوك والوجه وتيماء وضبا ومدن الحدود الشمالية.

دومة الجندل

مدينة دومة الجندل هي أكثر مدن منطقة الجوف شهرة بسبب أهميتها التاريخية والأثرية، وكانت دومة الجندل تسمّى بالجوف. وقد وصف غالب بن سراح، دومة الجندل، وهو أحد أمرائها إبان حكم آل الرشيد بالنقرة أي الحفرة أو المنخفض، وذلك في قصيدة له جاء فيها:

يا ماحلا والشمس بادٍ شعقها
من حدر الزرقا على نقرة الجوف

ومن الأسماء الأخرى التي تطلق على مدينتي دومة الجندل وسكاكا والأراضي المنخفضة التي تجاورهما اسم الجوبة أي الأرض المنخفضة الحوضية (مفضي ١٤٠٨ : ١٥).

وعرف الأشوريون اسم أدوماتو منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وهناك نقوش آشورية ترجع للقرن السابع قبل

قلعة مارد وإلى اليسار مئذنة مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قلعة مارد بالجوف

الميلاد جاء فيها أن دومة الجندل كانت مقراً لبعض الملكات العربيات (السديري ١٩٧٥: ٩).

وسجل التاريخ حرب مملكة دومة الجندل مع ملكة تدمر الزباء في القرن الثالث الميلادي، ولم تستطع الزباء فتح حصن مارد، فقالت قولها المشهور الذي صار مثلاً: «تمرد مارد وعز الأبلق»، مما يشير إلى قوة دومة الجندل آنذاك (الجاسر ١٤٠١: ١٠٩).

وقد غزا الجيش الإسلامي دومة الجندل ثلاث مرات، في السنة الخامسة للهجرة، والسنة السادسة للهجرة. أما الغزوة الثالثة فكانت في السنة التاسعة للهجرة حين وجه النبي ﷺ خالد بن الوليد إليها وتمكن من أخذ أكيدر بن عبد الملك (ملك دومة الجندل آنذاك) أسيراً إلى النبي ﷺ، فأسلم أكيدر لكنه بعد وفاة النبي ﷺ منع الصدقة وخرج إلى الحيرة بالعراق تاركاً دومة الجندل.

وإلى الشرق من مركز مدينة دومة الجندل توجد مستوطنة الرحيبين وهي مستوطنة مهجورة منذ أكثر من عشرين سنة وكانت حياة سكانها تعتمد على الزراعة والتجارة، ولهذه المستوطنة أهمية عمرانية وتاريخية، حيث كانت ذات موقع استراتيجي لملتقى طرق القوافل

قلعة زعبل بالجوف

التجارية، وساعد على ذلك توافر المياه الصالحة والأرض المناسبة للزراعة.

تكوّن المساجد والمنازل أهم العناصر العمرانية في دومة الجندل. ويعد جامع عمر بن الخطاب من أهم العناصر العمرانية بدومة الجندل، وهذا المسجد عند حافة تل بالقرب من حصن مارد، وهو مبني من الحجر. وتوجد القبلة على الجدار الجنوبي، ومدخل المسجد من باب في جهة القبلة قرب المئذنة. والمئذنة مبنى مستقل على شكل برج وسقفها هرمي. وهناك سلم يصل بين داخل المئذنة والجامع. ويتكون المسجد من فناء مفتوح مع وجود قاعة للصلاة مغطاة على جانب القبلة تشغل الجانب الشمالي الشرقي للفناء. ثم محراب مقوس يبرز من حائط القبلة. ويوجد بالصالة الرئيسية للصلاة في مواجهة الصحن ثلاثة صفوف من الأعمدة الحجرية مستطيلة الشكل بموازاة حائط القبلة، وهذه الأعمدة تحمل السقف الخشبي.

ويعتقد أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب # أمر ببناء هذا المسجد في السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) وهو في طريقه إلى بيت المقدس، وقد أجريت إصلاحات كثيرة في هذا المسجد، كان آخرها في عهد الإمام عبدالعزيز بن سعود في بداية دعوة الإصلاح التي قام بها

مئذنة مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

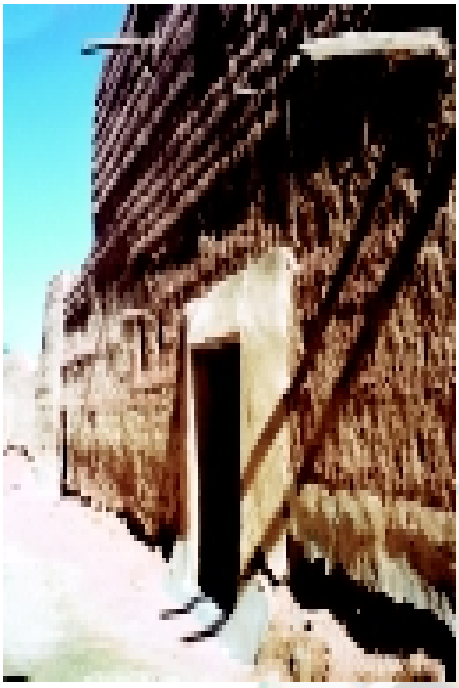

أحد البيوت المبنية من الطين في الجوف وهي لا تختلف في تصميمها عن البيوت في نجد

الشيخ محمد بن عبدالوهاب يرحمه الله (King 1986: 120).

أما مساكن دومة الجندل فيمكن ملاحظة أن البيت ينقسم إلى جزء مغطى يشمل المجلس والمخزن والحمام والغرف، وهناك جزء مكشوف هو المداخل والأحواش. ونلاحظ أن انفتاح الغرف يكون إلى الداخل مما يوفر الخصوصية للسكان. وللبيت غالباً مدخلان أحدهما للنساء والآخر للرجال، وقد يكون هناك حوشان أحدهما يرتبط بمدخل النساء، والآخر بمدخل الرجال.

ويضم الدور الأرضي غالباً المداخل والأحواش، والليوان والمطبخ والمخزن والمجلس، وهو واسع وأكبر من الليوان. وهناك فاصل بين جناح النساء وجناح الرجال.

أما الطابق الأول فيتألف من الروشن وغرفتين. وللغرف فتحات للداخل لتوفير الإضاءة والتهوية، والروشن يؤدي وظيفة التهوية والإضاءة الطبيعية. وقد وصف بلغريف العمارة بالجوف عام ١٨٦٢م فقال:

يختلف حجم المنازل حسب وضع ساكنيها. فالفقراء قانعون بمنازل

ضيقة لكنها منفصلة عن بعضها دائماً... ويمكن أن يعطي منزل مضيفنا غافل... فكرة لا بأس بها عن النوع الجيد. ففيه ساحة خارجية لإنزال حمولة الجمال وغيرها، وساحة داخلية، ومجلس استقبال كبير، وغرف كثيرة أصغر منه لها مدخل خاص تسكن فيها الأسرة. والظاهرة الأخرى التي تعتبر من أخص خصائص العمارة التقليدية في (الجوف) هي إضافة برج مستدير يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة أقدام وأربعين قدماً، وقطره اثنا عشر قدماً أو أكثر وله مدخل ضيق وفرجات في أعلاه تطلق منها نيران الأسلحة الصغيرة. ويكون أحياناً ملتصقاً بالمسكن وأحياناً أخرى منفصلاً عنه في الحديقة المجاورة المملوكة لصاحب المسكن... وإلى هذه القلعة يلجأ القادة وأنصارهم للدفاع عن أنفسهم في أوقات الثأر المستمر التي تحدث دائماً بين الشيوخ المتنافسين وهكذا تظل هدفاً لهجماتهم لتدميرها وحرقها. وهذه البروج، كالمباني الضخمة الحديثة في الجوف، مبنية من الطوب غير المحروق. وهي بسمكها العظيم وصلابتها، والتماسك الشديد للتربة المصنوع منها طوبها، إضافة للجو الشديد الجفاف، تكاد تضارع في قوتها وتحملها القلاع المبنية من الحجر. وفي الحقيقة فإن أسوارها المجردة من وسائل الدفاع، عندما تترك دون سقف أو صيانة تتحدى تعاقب أمطار الشتاء وعواصف الربيع لقرن كامل دون حتى تبدو عليها آثار الزمن، وقد شاهدت ذلك بنفسي. والمنازل، خاصة منازل الشيوخ وأسرهم، مفصولة عن بعضها بالحدائق والمزارع... والأسباب التي ذكرناها في الحديث عن انعزال القلاع تجعل انعزال المنازل عن بعضها بديهياً. لكن منازل عامة الناس ملتصقة رغم أنها ليست متناسقة في الشكل أو في طريقة البناء. والمساحات التي تحتلها الأسواق والتي يجتمع فيها السكان هي أيضاً غير منتظمة الأشكال (نصر ١٩٩٥: ٩١ -٩٢).

ثم يصف بلغريف مسكن شخص اسمه حمود من الشخصيات الرئيسة في الجوف فيذكر أن المسكن قلعة ضخمة غير منتظمة الشكل. فهو كتلة من البناء المرقع شهد إضافات عديدة إلى أن فقد

شكله المستطيل. وفي الحقيقة إن الجزء الجنوبي منها هو الجزء الوحيد الذي حافظ على بنائه الأول دون إضافة. وهنا تشير ضخامة حجم الحجارة وتربيعتها في الطبقة السفلى إلى قدم طريقة البناء. وتنتهي النوافذ الصغيرة العديدة التي على ارتفاع يتراوح بين عشرة إلى اثني عشر قدماً عن الأرض، تنتهي بعقود يمكن أن نطلق عليها عقوداً سيكلوبية وهي نوع بدائي من البناء يوضع فيه حجران متقابلان بميلان. وبالقرب من وسط القلعة برج مربع يبدو عريضاً بالنسبة لارتفاعه الذي لا يزيد على خمسين قدماً بينما عرضه نحو عشرين قدماً. ويعود بناؤه مقارنة بالسور الجنوبي إلى فترة أحدث. وبه فتحات ضيقة بغرض الدفاع. وهناك ساتر ضخم شبه دائري يبدأ من القلعة وينتهي عند ممر في الساحة الخارجية. وهو مبني بناء رديئاً بكتل غير منتظمة الشكل على عكس البناء الحجري للبرج. وتبدو البوابة الرئيسة في الزاوية الجنوبية لهذا المبنى الضخم المتنافر مماثلة في قدمها للبرج الرئيسي أكثر مما هي للأجزاء القديمة الأخرى. وللبوابة عقد في أعلاها وهي في هذا تختلف عن الأسلوب المستعمل في نجد حيث الأبواب والأسقف مسطحة دائماً.

وتنتهي البوابة بحاجز بارز في أعلاها وهي مثبتة إلى سور تتراجع عنه إلى الداخل من الجانبين. أما في الداخل فمساحات القلعة والأروقة مرصوفة بألواح من الحجارة ضخمة غير منتظمة الشكل ولكنها مترابطة بعضها مع بعض... والممرات التي تقود إلى الداخل مسردبة وطويلة مظلمة (نصر ١٩٩٥ : ٩٢-٩٣).

منطقة تبوك

مدينة تبوك شمال غربي المملكة، وعلى الطريق الإقليمي المؤدي إلى تيماء والمدينة المنورة جنوباً والأردن شمالاً، وتبعد عن المدينة المنورة بنحو ٧٠٠كم، وتعد مدينة تبوك ملتقى طرق رئيسية في المملكة.

ويمتاز مناخ تبوك بأنه مناخ صحراوي جاف، ومعدل المطر السنوي لا يتجاوز ٥٠مم سنوياً والأمطار شتوية، وتبلغ درجة الحرارة العظمى٤٢° مئوية، والصغرى ١٥° مئوية ومعدل درجة الحرارة السنوي ٢١° مئوية، ويصل معدل الرطوبة النسبية إلى ٣٣٪.

وتمتاز المنطقة التي تقع فيها تبوك بأنها حوض سهلي منخفض به بعض الهضاب الداخلية التي يتراوح ارتفاعها من ١٠٠م

إلى ٨٠٠م، وتمتاز تكوينات تبوك التي تقع بها المدينة بأنها من التكوينات الخازنة للمياه الجوفية، وقد أدى توافر المياه الجوفية بالمنطقة إلى ازدهار الأنشطة الزراعية والتجارية بها. وتشغل الأحواض، والهضاب الداخلية نحو ٤٦٪ من مساحة منطقة تبوك، وتشغل جبال الحجاز نحو ٣٢٪ وسهل تهامة نحو ٩٪، وصحراء النفود نحو ٨٪ من مساحة تبوك، وهضبة حسمى نحو ٥٪ (وزارة الشؤون البلدية والقروية، تبوك ١٤٠٧ : ٧).

وعن أصل تسمية تبوك يروي صاحب معجم البلدان أن النبي ﷺ توجه إلى تبوك سنة ٩هـ في آخر غزواته، ونزل هو وأصحابه على عين فأمرهم رسول الله ﷺ، ألا يمس ماءها أحد، فسبق إليها رجلان وهي تبض بشيء من ماء فجعلا يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها، فقال لهما ﷺ، ما زلتما تبوكان منذ اليوم فسميت بذلك تبوك لأن التبوك: إدخال اليد في شيء وتحريكه.

ويرى آخرون أن اسم تبوك كان معروفاً قبل الغزوة لقول النبي ﷺ حينما اقترب بجيشه منها (إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك) (القثامي ١٣٩٦، ج١ : ٧٣).

وذكرها بطليموس باسم تباوا وحدد موقعها عند الحدود الشمالية الغربية لبلاد العرب السعيدة، وربما تكون هذه التسمية تحريفاً لكلمة Tabu اللاتينية التي تشير إلى العزلة لأن تبوك قديماً كانت في شبه عزلة بسبب ما يحيطها من الرمال (القثامي ١٣٩٦، ج١ : ٨٢).

وعندما أشرقت الدعوة الإسلامية وانتشرت، قام الرسول ﷺ بغزوة تبوك في شهر رجب سنة ٩هـ وقد مكث الرسول ﷺ في تبوك عشرين يوماً حتى صالحه أهلها، ولا يزال موقع عين السِّكر وهي عين تبوك التاريخية، ومسجد الرسول ﷺ قائمين إلى اليوم.

وقد أدى توافر المياه الجوفية بالمنطقة إلى ازدهار الزراعة والتجارة وتربية الأبقار والإبل، والضأن، والدواجن.

توجد الأراضي الصالحة للزراعة عموماً في المناطق الداخلية شمال غربي تبوك وجنوبها وشمالي تيماء وشرقيها وحول الخريبة وفي مناطق الأودية (وادي أبو طينة ووادي أبو القزاز)، وغربي أملج. ويزرع نحو ٨٢٪ منها بالحبوب كالقمح والشعير كما تزرع مساحة بالخضراوات.

وتمتاز منطقة تبوك بوجود مواد طينية ومواد أخرى متنوعة يمكن أن تسهم في

مغاير شعيب بمدين

أغراض إنشائية وفي أعمال التلييس مثل الحجر الجيري والصلصال والجبس (الجص) وغيرها.

وقد شهدت منطقة تبوك أنماطاً من الاستيطان البشري منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، حيث وجدت أنظمة ري معقدة وكهوف وأنواع من الفخار الشهير بالفخار المَدْيني نسبة إلى مدين. وقد وجد الفخار المديني في مصر وفلسطين والأردن وفي تيماء ومغائر شعيب (أطلال ٥٤: ٦٦-٦٩).

ولما كانت تبوك بوابة الشمال فإن طرق الحج للأقطار الإسلامية الواقعة إلى الشمال من المملكة كانت تمر بها، ولهذه الطرق بعض الحصون المرتبطة بطرق الحج المصرية، ومنها قلعة الأزنم في السهل الساحلي، وقلعة زريب في الوجه، وقلعة الحج بمدينة تبوك، وقلعة المويلح على بعد ٣٥ كم إلى الغرب منها، وقلعة وادي العويند على بعد ٤٠كم جنوب غربي مدينة تبوك، وهناك قلعة أخرى شمالي تبوك (وزارة الشؤون البلدية والقروية، منطقة تبوك ١٤٠٧: ٤١).

وهناك بقايا موانئ بحرية على ساحل البحر الأحمر كان يستخدمها الحجاج القادمون من الغرب والشمال، منها الحوراء شمالي أملج، ودار عنتر شمالي

قلعة المويلح في منطقة تبوك

الوجه، وميناء الصورة بين الخريبة شمالاً والمويلح جنوباً وميناء الخريبة.

لقد توزعت مستوطنات تبوك في ثلاث مناطق ذات خصائص جغرافية طبيعية متباينة. فهناك المستوطنات الداخلية وتضم مدينتي تبوك وتيماء، وتمتد هذه المستوطنات على جوانب طرق التجارة والحج القديمة، وكذلك على مسار سكة حديد الحجاز ابتداء من الدار الحمراء جنوباً ومروراً بخشم صنعاء وقلعة المعظم والبرك وتبوك والمحتطب والحزم وبئر ابن هرماس وحالة عمار.

وهناك أيضاً التجمعات السكانية في جبال الحجاز حيث تتوافر الأراضي الزراعية كما هي الحال في شواق والعين وأبو القزاز. وتمتاز المناطق الجبلية حول الوجه وحول ضبا بكثرة عدد المستوطنات وقلة عدد سكانها. وهناك مستوطنات ساحلية وموانىء، ابتداء من حقل على خليج العقبة في الشمال وحتى أملج

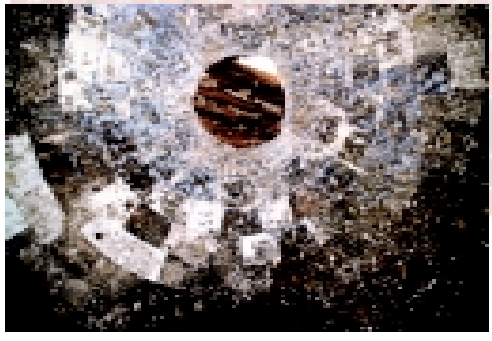

سقف حجري في قلعة المويلح

جنوباً وتشمل الوجه وضبا والمويلح ومقنا وطيب الاسم.

وتشمل العناصر العمرانية في تبوك إلى جانب المنازل التقليدية مسجد الرسول وعين السكر وقلعة الحج ومباني سكة حديد الحجاز. ومن أهم المعالم العمرانية التقليدية بتبوك، مسجد الرسول ﷺ، شمالي غربي ثكنات سكة الحديد وهو مربع الشكل، ويرجع تاريخ البناء الموجود حالياً إلى سنة ٣٠هـ (٦٥٠م). وقد تم تجديد هذا البناء باستخدام الحجر والخرسانة عدة مرات آخرها بين عامي ١٣٩٣هـ و١٤٠٤هـ.

ومن المواقع الأثرية بمدينة تبوك عين السِكْر بكسر السين وإسكان الكاف، وهي عين تبوك القديمة، ويرجع تاريخها تقريباً إلى ما بين ١٢-٢٢هـ (٦٣٤-٦٤٤م)، وتعد جدران هذه العين الحجرية من أقدم الإنشاءات الموثقة، وهي أحد الأسباب الرئيسية في تعمير مدينة تبوك ووجودها أصلاً (الجاسر ١٤٠١: ٤٢٩)

وهناك قلعة الحج شرقي عين الماء التاريخية (عين السكر) وقد بنيت هذه القلعة في القرن الحادي عشر الهجري (قبل عام ١٠٦٤هـ) والهدف من إنشائها بجوار عين السكر هو حماية هذه العين وحماية واحة تبوك وطرق الحجاج. وعلى مدخل هذه القلعة ثمة نقش يسجل قيام السلطان محمد خان بترميمها عام ١٠٦٤هـ (١٦٤٤م تقريباً). وقد

من البيوت الطينية

شهد هذا المبنى كثيراً من أعمال الترميمات والتعديل نفذ أهمها أثناء إنشاء سكة حديد الحجاز قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. واستخدمت هذه القلعة مخفراً للشرطة.

ومن المباني الأخرى ذات الأهمية الحضارية بمدينة تبوك مباني سكة حديد الحجاز، وهي من الحجر. وتضم هذه المباني، ثكنات السكة الحديدية، وهي ذات جدران مبنية من الحجر، والسقف من الخشب والقرميد. ومساكن موظفي السكة الحديدية، وهي ذات أسقف خرسانية وجدران من الحجر، ومكاتب وخزان مياه معدني، كما تضم بئراً حجرياً وبرجاً معدنياً وعدداً من الورش وملاحقها (وزارة الشؤون البلدية والقروية، تبوك: ١٨٢). وقد أنشئت ست عشرة محطة على مسار السكة الحديدية فيما بين تبوك والعلا، وست عشرة محطة أخرى فيما بين العلا والمدينة. وقامت سكة حديد الحجاز قبل عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م).

ومن المواقع ذات الأهمية الحضارية بمدينة تبوك بستان أشجار النخيل الذي يقع جنوبي عين الماء التاريخية المعروفة بعين السكر ويرجع تاريخ هذا البستان إلى القرن الثامن الهجري (عام ٧٨٤هـ) ١٣٦٢م تقريباً، وهو بستان مسور يحتوي على عدد كبير من أشجار النخيل، وإلى الجنوب من هذا البستان منشآت طينية، وهي مساكن تقليدية مبنية من الطوب

من البيوت الطينية التقليدية

الطيني، وهي من المجمعات السكنية القليلة التي لا تزال باقية دون أن ينتابها تغيير جوهري (وزارة الشؤون البلدية والقروية، تبوك ١٤٠٧ : ١٨١).

أما المنازل التقليدية في منطقة تبوك فهي تبنى من اللِّبْن وتكثر البيوت المبنية من الطوب الطيني في القرى المجاورة للأودية، وفي مدينة ضبا ومدينة تيماء، وهي تشبه في تصميمها البيوت التقليدية في المنطقة الوسطى التي سبقت الإشارة إليها.

مدينة الوجه

تبعد الوجه عن تبوك بنحو ٣٤٠كم، وتقع في سهل تهامة على ساحل البحر الأحمر في المنطقة المتاخمة لسلسلة جبال الحجاز، ويغلب على سطحها وجود الترسبات الحصوية والطميية إلى جانب الكثبان الرملية. ويمتاز مناخ الوجه باعتداله بسبب تأثير البحر، وتبلغ درجة الحرارة العظمى ٢٩ْ مئوية والصغرى ٢١ْ مئوية، ويصل معدل درجة الحرارة السنوي إلى ٢٥ْ مئوية، ويصل متوسط كمية المطر السنوي إلى ٣٥ملم، ومعدل الرطوبة النسبية فيها ٦١٪ (وزارة الشؤون البلدية والقروية ١٤٠٧ : ٨٧).

ونشأت مدينة الوجه في عصر اللحيانيين أي منذ أكثر من واحد وعشرين قرناً، واحتلها الرومان سنة ١٠٦ م حيث كانت ميناءً لمدائن صالح (وزارة الشؤون البلدية والقروية، النطاق العمراني لمدينة الوجه ١٤٠٨ : ١٧).

وتعد الوجه من المراكز الرئيسية بمنطقة تبوك، وهي ميناء مهم يخدم العلا وحائل، ويعمل معظم السكان الآن في الوظائف الحكومية والنشاط التجاري إلى جانب السياحة وصيد الأسماك الذي يعد من الحرف القديمة لسكان الوجه (وزارة الشؤون البلدية والقروية ١٤٠٧ : ٨٧).

ولقد وصف كاتب مرآة الحرمين بلدة الوجه سنة ١٣١٩هـ فقال إنها قرية صغيرة بها ما يقرب من ١٥ بيتاً ويسكنها حوالي ٥٠٠ نسمة، وبها قلعة وثلاثة مساجد وزاويتان وحوانيت على الشاطىء وبها كذلك ثمانية صهاريج لحفظ ماء المطر (رفعت ١٣٤٤، ج١ : ٤٩٠).

ووصف البتنوني بلدة الوجه عام ١٣٢٧هـ فقال إنها تضم أربعين بيتاً صغيراً، ولا يزيد عدد أهلها على ٥٠٠ نفس ومعظمهم من عائلة واحدة تدعى بُدَيْوي وفيها ثلاثة مساجد، وكان للوجه أهمية عندما كان ركب المحمل يمر بها لما كانت كسوة الكعبة الشريفة تنسج في

مصر وتهدى سنوياً إلى الكعبة وتبعث في محمل خاص إلى مكة المكرمة. وكانت الوجه تصدر فحم الخشب إلى السويس (الجاسر ١٣٩٧، ج٣: ١٣٥٨).

تتكون مدينة الوجه القديمة من حيين متميزين هما: حي الساحل على الشاطئ الشمالي، ويضم هذا الحي الميناء والسوق القديم وثلاثة مساجد قديمة وعدداً قليلاً من المنازل ذات العمارة التقليدية، والحي الثاني، حي القرفاء الذي يشمل الأراضي المرتفعة فوق هضبة الوجه شمالي وادي زريب، ويمتاز هذا الحي بوجود معظم المنطقة السكنية القديمة وبه بعض المباني ذات الشهرة الحضارية، مثل مقر الإمارة القديم، ومسجد بديوي، وقلعة تركية (غبان ١٤١٤: ٢٧٩).

تضم الوجه مجموعة من المباني التاريخية، منها مسجد الأشراف الذي يعد أقدم مساجد الوجه وينسب إلى إحدى أسر الأشراف، وهي أسرة آل مرعي. وهذا المسجد ملاصق لمبنى الجمرك بجوار رصيف الميناء، ويتميز هذا المسجد من الناحية المعمارية بأنه ذو باب معقود تعلوه مئذنة مخروطية الشكل، يصعد إليها من داخل المسجد، ومنبره مصنوع من الخشب.

ومن المعالم العمرانية أيضاً مسجد بديوي الذي يزيد عمره على مائة عام. وقد شاهد بيرتون Burton عمليات بنائه سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) عندما زار الوجه ووصف العمل في بنائه بأنه بطيء وعزا ذلك إلى نقص التمويل. ويتكون هذا المسجد من ساحة كبيرة مسقوفة بخشب محمول على أعمدة حجرية. ومدخل هذا المسجد في الجانب الشمالي الغربي، وفي الزاوية الشمالية الغربية مئذنة مخروطية، وعلى مدخل المسجد عقد ذو ثلاثة فصوص.

وهناك الزاوية السنوسية وهي مسجد صغير يقال إن الداعية محمد بن علي السنوسي أنشأه. وهذا المسجد على ساحل البحر شمالي الميناء، وإلى الشمال من الزاوية السنوسية على طرف جرف صخري مسجد آخر، هو مسجد أبو نبوت وله سلالم أو درج طويل يهبط لساحل البحر.

وتضم الوجه مجموعة من القلاع، منها قلعة الوجه أو الزريب، وهذه القلعة في وادي الوجه أو وادي الزريب، وذلك إلى الشرق من مدينة الوجه بنحو ١٠كم. وقد زارها فيلبي سنة ١٩١٥م ووصفها خاطئاً بالقلعة الصليبية (الجاسر ١٣٩٧، ج٣: ١٣٥٩) لكنها في الحقيقة قلعة

قلعة الزريب في الوجه

عثمانية من سلسلة القلاع التي أنشئت على طريق الحج المصري لتوفير الأمن ولخدمة قوافل الحج.

وهذه القلعة مبنية من الحجر الجيري المتوافر بالقرب من موقع بنائها. وهي بصفة عامة مربعة الشكل، إلا أن ضلعيها الشرقي والغربي يصل طول كل منهما إلى ٥٥,٣٠م، أما ضلعاها الشمالي والجنوبي فيقلان ٤م عن طول الضلعين السابقين أي ٥١,٣٠م. وتضم القلعة بين جدرانها عشرين غرفة ومسجداً وبئراً تجاور المسجد من ناحية الشرق. ويحتمل أن تكون بعض الحجرات الكبيرة على الضلع الجنوبي للقلعة قد استخدمت لخزن ما يجلبه الحجاج أو لودائعهم. وعلى كل ركن من أركان القلعة الأربعة برج للمراقبة والحماية، له فتحة من الداخل. وباب القلعة في منتصف ضلعها الغربي، وقد عرف تاريخ بناء هذه القلعة من بيت شعر منقوش على مدخل القلعة يقول:

تم هذا السعي في تعميرها
بأمير الحج كامل يوسفا
قلعة بالوجه قد أرختها
(قلعة السلطان وجه للصفا)

وبحساب الجمل نجد أن شطر (قلعة السلطان وجه للصفا) تعني سنة ١٠٢٦هـ

وهو تاريخ بناء هذه القلعة في عهد السلطان أحمد الأول التركي.

أما قلعة السوق فهي قلعة بناها العثمانيون سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) وكانت مقراً للحامية العثمانية، وقد وصف هذه القلعة محمد صادق باشا سنة ١٢٩٧هـ بأنها برج مشيد على جبل شاهق، مشرف على البحر في ارتفاع ٥١م وبه مدفعان وثلاثون عسكرياً. وهذه القلعة على جرف صخري يرتفع إلى أكثر من ٥٠م فوق مستوى السوق القديم. والقلعة بناء مستطيل الشكل به برج في الركن الشمالي الشرقي، أما مدخلها ففي الضلع الغربي، وقد استخدمت هذه القلعة مقراً لشرطة الوجه ثم مستودعاً لسلاح الحدود (غبان ١٤١٤: ٢٨٣).

تيماء

مدينة تيماء جنوب شرق تبوك بحوالي ٢٦٠كم، في منطقة حوضية يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠٠ - ١٥٠م فوق سطح البحر. وقد ظهر اسم تيماء على نطاق واسع في الوثائق التاريخية التي ترجع للفترة ما بين القرن الثامن والخامس قبل الميلاد، كما أن الآثار العمرانية الموجودة، مثل أسوار المدينة القديمة، تؤكد المكانة المهمة لمدينة تيماء، وتضم أسوار المدينة ما مساحته ٨كم٢ تقريباً. وهناك الشواهد النبطية الرومانية المشتركة (٤٠٠ق.م - ٦٠٠م) وتتمثل في الأضرحة وبعض قنوات المياه وبقايا أساسات.

تتخلل الأراضي الزراعية بلدة تيماء القديمة بنسيجها التقليدي ويحيط بها سور المدينة الأثري من جهتي الجنوب والغرب. وقد أقيم سور تيماء الطيني سنة ١٩١٥م، ولم يبق من السور سوى بعض الأطلال وبوابة درويش (التيمائي ١٤١١: ١٠٩).

وجاء في تقويم البلدان لأبي الفداء أن تيماء حصن أعمر من تبوك وبها نخيل (١٨٤٠: ٨٧)، وبها الحصن المعروف بالأبلق، وينسب إلى السموأل بن عادياء الذي يقول فيه:

لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره
له غرر مشهورة وحجول

وذكر حمد الجاسر أن بعض المتقدمين من المؤرخين قد أشاروا إلى أن الكتابات العربية نشأت أول ما نشأت في تيماء ودومة الجندل (الجاسر ١٤٠١: ٤٠٦). وجاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج

الأصفهاني حديث عن هروب امرئ القيس من ديرة بني فزازة واحتمائه بالسموأل الذي كان يقيم في حصن له في واحة تيماء.

وكان لتيماء دور اقتصادي وعسكري مهم لتوسطها بين أراضي الإمبراطورية البابلية ومصر وبلاد فارس، وهي أيضاً تسيطر على الطرق الرئيسية المؤدية إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر، والمؤدية إلى كل من الشام وجنوب غربي الجزيرة العربية (اليمن).

وقد تمتعت تيماء بشهرة تاريخية في عهد الملك الآشوري تيجلات بليزر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م). وهناك نص مسماري وصف تيماء بأنها مقر الإقامة الريفي لنبونيدس آخر ملوك الإمبراطورية البابلية الثانية، ويرجع هذا النص إلى القرن السادس قبل الميلاد (أبو درك ١٤٠٦ : ٤).

تتمثل العمارة التقليدية في تيماء في البيوت القديمة التي كانت أساساتها من الحجارة المحلية. وتبنى الجدران فوق الأساس من اللَّبْن الذي يُعد بخلط الطين بالتبن واستخدام الملبن أو الملبان. ثم يوضع اللبن بعد إعداده ليجف ثم يستخدم في البناء ويستخدم الطين كالمونة بين كل لبنة وأخرى.

ويستخدم الطين المخلوط بالتبن في عملية التلييس وتسمى في تيماء المرخ ويتم التلييس باليد. ويستخدم الخشب في عمل الأسقف حيث يستخدم الأثل ويوضع فوقه الجريد ثم يوضع السعف فوق الجريد، ثم يوضع الطين فوق السعف والجريد. ويستخدم الخشب (الأثل وجذوع النخل) في عمل الأبواب، ويقوم بعمل الأبواب النجارون المحليون. ويستخدم نوعان من الأقفال أحدهما للأبواب الداخلية ويسمى المزلاج ويفتح ويقفل من الداخل. أما النوع الآخر فهو المجرى ويركب على الباب من الداخل، لكنه يقفل ويفتح من الداخل والخارج، ولهذا تبنى بجدار البيت فتحة بجوار الباب تتيح للشخص إدخال يده ليفتح القفل.

ويوجد بتيماء مجموعة من القصور، منها قصر الرضم، ولهذا القصر عدة أسماء منها قصر الدير، قصر مظلوم، ويسميه وينت Winnet قصر ظلوم، ويعتقد أنه قصر الأبلق (أبو درك ١٤٠٦ : ٣).

وقصر الرضم شمال غربي مدينة تيماء، وهو بناء ضخم، ومتوسط أبعاد الأحجار التي استخدمت في بنائه ما بين ٤٠-٦٠ سم في الطول والعرض، وحوالي ١٥-٢٠ سم في الارتفاع. ويمتد

بناء القصر على هيئة مستطيل أبعاده التقريبية ٣٤م × ٢٥ م.

وترتفع الأسوار الخارجية للقصر إلى ٣,٥م ويزيد سمكها على مترين، ولا تزال بعض جدران هذا القصر قائمة، تهدم أعلاها، وبقي من الجدران من الجهة الجنوبية ما يبلغ طوله ٤م، وبقية الجدران في الجهات الأخرى باقية، إلا أن أعلاها قد تهدم (الجاسر ١٤٠١: ٣٩٤).

والقصر من ثلاث غرف، الأولى مستطيلة الشكل مبنية من الحجر تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وطول جدارها الغربي ٢٥م والجنوبي ٣٤م. وقد بنيت جدران هذه الغرفة بطريقة المداميك، ومتوسط ارتفاع الجدران ٣,٥م وعرضها يزيد على مترين. وتحتوي الغرفة الأولى على غرفة ثانية في أقصى الجنوب الغربي للغرفة الأولى، وطول الغرفة الثانية ١٢م وهي مقسمة بجدار داخلي، وعرض هذه الغرفة ٣,٥م. والغرفة الثالثة في الجانب الشرقي، وهي على هيئة مستطيل، ويبلغ طول هذه الحجرة ٣٠م وعرضها ٦م.

وتوجد بئر داخل الغرفة الأولى، نُحتت في الصخر، وخزان للماء، أبعاده ٤م×٨م جنوبي الغرفة الثالثة. وهناك قناتان مبنيتان من الدبش المملط بالطين تجريان من الغرب إلى الشرق طول الأولى ٢٠م وطول الثانية ٤,٥م وتصلان إلى الخزان من جهة الشرق (أبو درك ١٤٠٦: ٢٩).

وفي تيماء عدد من القصور، يطلق على بعض منها اسم قصر السموأل، ومنها ذلك القصر الذي يقع جنوب غربي تيماء فوق تل لا يبعد عنها أكثر من كيلومترين، حيث كان محاطاً بسور قوي من الصخر الصلب متصل بسور المدينة، ومساحة هذا المكان واسعة، وقد اشتهر هذا المكان عند أكثر السكان باسم قصر السموأل (الجاسر ١٤٠١: ٣٩١-٣٩٢).

وهناك أيضاً قصر الحمراء، وهذا القصر على حافة جبل عند نهاية طرف السور الرئيسي لمدينة تيماء من الجهة الشمالية، وذلك وسط مساحة زراعية. وبقايا هذا القصر جدران تتخذ شكلاً مستطيلاً طوله ٣٥م وعرضه ١٠م، ويأخذ المبنى حيزاً كبيراً من قمة تل عند حافة صخرية حمراء، ومن هنا اكتسب القصر صفة الحمراء. ويسمى محلياً قصر الحمراء أو القلعة الحمراء، وقد اكتشف هذا القصر في مارس سنة ١٩٧٩م خلال عملية مسح منظم قامت به وكالة الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية (أبو درك ١٤٠٦: ٣٧).

قصر الحمراء – تيماء

ويعتقد أن تاريخ هذا القصر يرجع إلى ما بين ٦٧٠ق.م و٤١٠ق.م وذلك من واقع تحليل أجري بالكربون المشع (كربون ١٤) على قطع من الفحم النباتي أخذت من إحدى غرف القصر. ويضم هذا القصر أربع عشرة غرفة. وبعض هذه الغرف مساحة مكشوفة مثل الحجرة رقم ٦، وبعداها ٥,١×٩,١م. ومعظم الغرف أشبه بممر حيث يكون الطول مبالغاً فيه إذا ما قورن بالعرض، فالغرفتان ١١، ١٢ متوازيتان، وطول كل منهما ٧م والعرض ١,٨م. ويعد قصر الحمراء معلماً حضارياً رئيسياً في شمالي مدينة تيماء.

أما الحصون فهناك حصن الأبلق، وينسب بناء هذا الحصن الشهير إلى عادياء الجد الأول للسموأل، وقد جاء في وصف أحد المؤرخين له أنه كان مبنياً من حجارة سوداء وبيضاء. وقيل إنه سمي الأبلق لأنه بني من حجارة مختلفة الألوان. وكدأب بعض الكتب العربية القديمة نسب مؤلفوها بناء هذا الحصن إلى سليمان بن داود عليه السلام، لأن العادة عندهم جرت بأن ينسبوا كل بناء قوي إلى سليمان الذي سخر الله له الجن والشياطين، وهناك كثير من الأبنية والآبار في الجزيرة العربية نسبت إلى سليمان والجن والشياطين،

وقد سجل المعري في شعره هذه الظاهرة في قوله:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسناً، عدوه من صنعة الجن
(الجاسر ١٤٠١: ٣٩١).

وهناك بقايا أسوار للمدينة، وبنيت هذه الأسوار من الأحجار الضخمة، ويحتمل أن يكون بعض هذه الأسوار قد بني سنة ٥٥٠ ق.م وأن الأسوار الموجودة حالياً هي بقايا تلك الأسوار التي بناها الملك البابلي نبونيدس البابلي. ويؤكد ذلك أنه لم يعرف في أية فترة من فترات تاريخ المنطقة الشمالية بناء سور يضاهي هذا السور من حيث الفخامة والاعتماد على الأحجار. وبناء على ذلك فإن نسبة بناء السور إلى إمبراطورية عظمى يكون أقرب إلى الواقع (أبو درك ١٤٠٦: ٩). وقد بني السور من كتل الحجر الرملي والتي ثبتت بمونة من الطين لتملأ الفجوات التي بين الكتل. وهناك أجزاء في السور مبنية من طوب اللبن. وكان هذا السور يحيط بالبلدة وحدائقها وحصونها من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ومن الشمال الغربي، وقد شيد على هيئة شبه منحرف ذي أضلاع ثلاثة، وهي من جهة الشرق والجنوب والغرب، وبلغ طول كل ضلع حوالي ٢,٥كم، ومتوسط الارتفاع ما بين متر و٣,٥م، وكان للسور بوابات.

كما يوجد عدد من الآبار حول مدينة تيماء القديمة، لكن بئر هداج التي تقع وسط المدينة القديمة ربما كانت أكبر بئر عرفت في الجزيرة العربية (أبو درك ١٤٠٦: ٨). وهذه البئر حفرة تأخذ شكل قوس أو هلال متعرج، وجوانبها عميقة مبطنة بالحجارة بطريقة غير منظمة. وقد وصفت بئر هداج بأنها كانت مورداً لقوافل من الجمال والماشية التي كانت تقصدها من أماكن بعيدة، كما أن الواحات التي كانت تجاور البئر كانت تروى من مياهها. ويُذْكَر أن السكان قالوا إن هذه البئر كانت تتَّسع لتسعة وتسعين جملاً تنزح منها الماء في وقت واحد أثناء فصل الصيف. وإلى الشمال من البئر توجد سبخة يعتقد بأنها المكان الذي وصف بأنه بحيرة (الجاسر ١٤٠١: ٤٠٩).

والمناطير أبراج مراقبة ينظر منها، وتمتاز بأنها عالية ودائرية الشكل ولها فتحات تمكن الشخص أن يرى ما يحيط بالموقع من خلال تلك الفتحات والشرفات. ومن بين هذه المناطير، منطار السعيدات ومنطارا كايد والحامد شمالي تيماء، ومنطار سرمدا شمال غربي هداج

في منطقة الطعيس (التيمائي ١٤١١: ١٠٩-١١٢).

وعلى الرغم من اختلاف تخطيط البيوت في تيماء إلا أن الخصائص العامة متشابهة، فالبيت مقسم إلى قسمين، أحدهما للرجال، وأهم ما يميز دوره الأرضي وجود القهوة وهي غرفة واسعة وأمامها حوش واسع، وغرفة تسمى المشب وتحتوي على الكمار، وهو أشبه بدولاب توضع فيه الدلال والأباريق ولوازم إعداد القهوة والشاي، وبالمشب الوجار وهو مكان إضرام النار لإعداد الشاي والقهوة، وفوق الوجار فتحة بالسقف تسمى السوامة ليخرج منها الدخان.

ومن غرف المنزل الليوان وهي غرفة جلوس العائلة في الصيف، وتمتاز بأنها مفتوحة من جهة الشرق غالباً للتهوية. وعادة ما يكون جدار السطح ساتراً ليستخدم للمبيت في فصل الصيف، وتوجد كذلك في بعض الأحيان غرف تسمى السقايف تستخدم كمخازن، أو للسكن أو لحفظ فراش النوم في النهار (التيمائي ١٤١١: ١١٠-١١٣).

مدينة ضبا

نشأت مدينة ضبا في القرن السادس الهجري مرفأ للسفن الشراعية على ساحل البحر الأحمر، وتقع ضبا في سهل تهامة بين جبال الحجاز شرقاً وساحل البحر الأحمر غرباً، وتبعد عن مدينة تبوك نحو ١٥٠كم جهة الجنوب الغربي.

وقد ارتبط إعمار مدينة ضبا منذ عدة قرون بوفرة مياهها العذبة ووقوعها على طريق الحج البري للقادمين من مصر والشام، وقد عمرت كمدينة لها أهميتها ابتداء من عام ١٢٣٠هـ حين بنى العثمانيون بها برجاً لحماية الحجيج، إذ رابط في هذا البرج جنود عثمانيون. ويمتاز عمران ضبا بالطابع المعماري المملوكي والعثماني ذي البوابات الكبيرة والعقود والرواشين، وخاصة في المنازل المطلة على البحر. وللمنزل فناء مكشوف تطل عليه جميع الحجرات، ومعظم المنازل القديمة من دورين ومبنية من الحجر والطين والجبس (وزارة الشؤون البلدية والقروية، نطاق النمو العمراني لمدينة ضبا ١٤٠٨: ١٠٨).

وتتكوّن ضبا القديمة من حيين رئيسيين هما حي الساحل وحي القرفاء، ويشغل حي الساحل الشريط الساحلي الضيق، أما حي القرفاء فيشغل التلال المطلة على الشريط الساحلي. ويمتاز حي الساحل بوجود نظام الأحواش الذي انتشر في تخطيط المدن في نهاية العصر

العثماني، أما حي القرفاء (أي الأرض المرتفعة أو التي اقتلعت منها الأشجار) فشاع فيه نظام التخطيط الحديث.

تتميز ضبا بوجود بعض المساجد والقلاع المهمة، ومنها المسجد الجامع في حي الساحل ويعود تاريخ إنشائه إلى نهاية القرن الثالث الهجري. وقد اختطه في البداية رجل من عرب الرشايدة، ثم قامت الحكومة التركية بعمارته، وأضافت له مئذنة، وفي بداية العهد السعودي قام الملك عبد العزيز بتوسعته وإصلاحه.

وهناك أيضاً مسجد الزاوية الذي ينسب بناؤه إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي كان مقيماً في مكة ثم رحل إلى ليبيا سنة ١٨٤٠م، وأنشأ عدداً من المساجد في ينبع، وأُملج، والوجه وضبا ،وجعل لكل منها أوقافاً يصرف من ريعها على صيانتها.

ومن أهم الآثار الباقية بمدينة ضبا: السوق القديمة في حي الساحل، وتتكون من محلات تجارية ووكالات وحواصل (جمع حاصل)، وهو الدكان الصغير الذي تخزن فيه البضائع أو يبسط فيه للبيع. وتحيط هذه المحلات بمنطقة واسعة خالية من البناء، كانت في الماضي مناخاً للإبل التي تحمل المواد المختلفة. وكانت هناك ستة شوارع تؤدي إلى مناخة السوق، اثنان من الجهة الشرقية واثنان من الجهة الشمالية، يربطان بين السوق وحي القرفاء، واثنان من الجهة الجنوبية الغربية يصلان بين السوق وكلٍ من المسجد الجامع والميناء.

وبضبا قلعة الملك عبد العزيز وقد بنيت هذه القلعة مكان برج عثماني صغير، تمثل في فناء وثلاث غرف في الدور الأرضي، وغرفة في الدور العلوي، إلى جانب مكان للمدفع خارج البرج. وفي عهد الملك عبد العزيز استخدم هذا البرج مقراً للشرطة والمحكمة، ثم أزيل وبنيت القلعة التي تشرف على السوق من الجهة الغربية، وهي تعتلي تلاً مرتفعاً. وقام ببناء هذه القلعة سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) معماريون من أهل ينبع والوجه وضبا، وقد بنيت تلك القلعة من الحجر الجيري المحلي، أربعة أبراج (غبان ١٤١٤: ٢٧٦-٢٧٨).

مدن الحدود الشمالية

نشأت مدن الحدود الشمالية (عرعر، طريف، رفحا) مع إنشاء خط أنابيب البترول (التابلاين) قبل نحو خمسين سنة فبسبب توفر بعض الخدمات التي وفرتها شركة النفط أصبحت هذه المدن مراكز

استقطاب لسكان القرى المجاورة ولسكان البادية المحيطين بها.

وفي هذه المدن تتكون العمارة من نمطين مختلفين من حيث نسيجها العمراني، أحدهما تقليدي يتمثل في المباني الطينية والشوارع الضيقة، والآخر حديث ذو نسيج شبكي ومبان خرسانية حديثة وشوارع فسيحة ويمتاز البيت الطيني التقليدي بنفس الخصائص التي يمتاز بها البيت التقليدي في بقية مدن وقرى المنطقة الشمالية من حيث الفصل بين جناح الرجال وجناح السيدات، ووجود مدخلين أحدهما للرجال والآخر للنساء، ووجود أجزاء مكشوفة تتمثل في المداخل والأحواش، وفتحات الغرف في الدور الأرضي تكون للداخل مما يتيح الخصوصية والأمن ويوفر التهوية والإضاءة الطبيعية.

خصائص البناء في المنطقة الشمالية

يتكون البناء التقليدي في المنطقة الشمالية من سور خارجي مرتفع يحيط بالمنزل بشكل شبه مربع، كل جهة منه تسمى لايحْ أو لايحه. ويبدأ البناء بحفر الأساس بعرض متر تقريباً وعند نهايته يكون عرضه بحدود ٢٠-٣٠سم تقريباً، أما حجمه وضخامته فيكون ذلك حسب مقدرة ومكانة صاحب البناء والغرض الذي من أجله بني هذا البناء. ومن تقاليد البناء المعتادة أن تكون المنازل متجاورة ومتلاصقة بحيث تكون جدرانها مشتركة. ويحرص معظم الناس على أن يكون البيت ملتصقاً أو مشتركاً مع جدار الجار في أكثر من جهة لحمايته من الأمطار وعوامل التعرية، ولا يفصل المنازل عن بعضها إلا ممرات ضيقة حسب عرفنا الحالي، وكانت في الزمن السابق تصمم وتبنى بهذا الشكل لتمكن الأهالي من التواصل فيما بينهم، وتمكنهم من الدفاع عن أنفسهم في حالة أي هجوم عليهم. ويبنى سور للقرية بالعروق، ويكون به مداخل من الجهات الأربع، وفي كل ركن من الأركان برج أو مقصوره للمراقبة. وتغلق هذه الأبواب ليلاً في أيام الخوف وتفتح نهاراً. أما المدن في ذلك الوقت فكان لها أيضاً أسوار ذات بوابات ضخمة، عليها حراس، وفي هذه البوابات أبواب صغيرة تسمح بخروج أو دخول شخص واحد، ويسمى هذا الباب الصغير خوخه إذ إن فتحها وإغلاقها أسهل من فتح وإغلاق البوابة الضخمة بكاملها. وتتكون المدينة من مناطق معينة تسمى حارات، كل حارة تسكنها أسر متقاربة، وفي بعض

الحارات منطقة أصغر من الحارة تسمى حشرة وتسمى أيضاً شِلَّهْ لها مدخل واحد، وهي ساحة غير كبيرة محاطة من معظم جوانبها بالبيوت، وكل بيت له عليها باب أو بويب يسمى طرقة. وتكون الحشرة عادة مجلساً للنساء في الليل أثناء الصيف في الليالي المقمرة، وملعباً للأطفال بالنهار، والصبايا والصبيان في أوقات أخرى، وهي بمثابة المتنفس لأصحاب هذه البيوت المطلة عليها. ولها منفذ واحد يتفرع من الممر الرئيسي لتلك الحارة. ولا يزيد عرض الشوارع عن ٥م إلى٦ م، وفي بعض المواقع لا يزيد عن مترين. وقد يصل اتساع بعض الممرات إلى متر ونصف. وتكون مساحات البيوت التقليدية عادة كبيرة فالمتوسط بحدود ١٥م×٢٠م تقريباً في بعض الحارات، بينما تكون مساحة بعض البيوت أكثر من ٣٠م×٣٠م. ولمعظم البيوت ملاحق يطلق عليها اسم المراغة أو الجاخور (الياخور) ويسمى القوع أو الحوش أيضاً. وبه حجرة صغيرة للبقر أو الغنم، وحجيرة تبنى باللبن ولا تسقف ليوضع بها الحطب. وبه حجرة أخرى مسقوفة لخزن الأعلاف. وهذا الملحق يحتوي على مساحة كبيرة مفتوحة من الداخل تقارب نصف مساحة المنزل، وفي نهاية المراغة الموالية للمنزل غرفة تعد مخزناً للوازم الدواب والركائب، مثل الأشدة، والحدائج، وسروج الخيل، والحطب، والأقتاب، والأرشية للفلاح.

ومن المعتاد أن يكون للمنزل مدخل رئيسي واحد مهما كبر، حتى القصور والقلاع والبساتين المسورة لها باب واحد، ويختلف مقدار اتساع وارتفاع هذا الباب حسب مكانة أصحابه، منها ما يدخله الجمل بما حمل، ومنها ما لا يمكن أن يدخله إلا الإنسان حيث تبقى الدواب في الخارج

أما المنازل العادية فتتكون من المدخل الرئيسي للمنزل، ويتفرع منه مدخل القهوة والليوان حيث مجلس الرجال ومكان استقبالهم. ويمتد هذا المدخل باتجاه داخل المنزل ثم ينحرف يميناً أو شمالاً ليستر داخل المنزل عن المارة وعن الداخل والخارج من الرجال الأجانب. ثم يفضي إلى حوش المنزل حيث الرواق الذي يلتف بشكل مربع حول الحوش الداخلي المفتوح، وهذا الرواق يعتمد على أعمدة من الصخور المطلية بالجص، ويسمى كل واحد من هذه الأعمدة ميلاً تشبيهاً له بالميل (المرود) الذي تكحل به العين. ويسمى الميل أو العمود أيضاً ساريه وهي تتألف من قطع مستديرة من الحجارة

تسمى الواحدة خرزه. وهذا العمود ينتهي بقمة على شكل تاج تسمى المغطاة، وتكون هذه المغطاة إما مربعة أو مستطيلة الشكل أو مستديرة أو منقوشة بمثلثات بارزة من الجص وفوقها أيضاً صخرة أكبر منها تسمى القناعة.

وفي وسط هذا الحوش المفتوح، بيارة مغطاة بلوح من الصخر يسمى الفرش فيه ثقب قطره بوصة تقريباً لتصريف مياه الغسيل، وقد يلزم فتحة أو ثقب أكبر من ذلك، ويسمى المطلاع أي مخراج السيل، لتصريف مياه الأمطار والمياه الفائضة أثناء الغسيل. وعلى الرواق المسقوف تنتظم الغرف التي لا تقل عادة عن ثلاث إلى أربع غرف للنوم، وغرفة كبيرة نسبياً تسمى المسخن (تنطق المصخن) أو تسمى المشب حيث تجتمع الأسرة في ليالي الشتاء حول النار. ومن المعتاد أن يكون المطبخ بعيداً عن غرف النوم، وكذلك دورات المياه كما تسمى اليوم، فلم تكن في ذلك الوقت دورات مياه بمفهومها المعروف الآن. ويكون عرض الرواق المسقوف والذي يحيط بالغرف ٤م إلى٥ م في المنازل المعتادة. ويطلق عليه أحياناً قبة أو مصباحْ حيث يكون مجلساً للأسرة في الصيف ومحلاً لتعليق القرب لتبريد الماء، وفيه توضع المركاة والمروى وكلها أوان لحفظ الماء وتبريده، فالمركاة هي خزان كبير للماء مصنوع من النحاس، يوضع على دكة مرتفعة لحمايته من الأطفال وتجنيبهم السقوط فيه، وله غطاء من الخشب، والمرواة هي إناء لجلب الماء من مصدره إلى المنزل على رؤوس نساء يقمن بهذه المهمة مع مهمة تنظيف المنزل، وتسمى الواحدة منهن الروّاية، هذا إذا لم يكن للحارة سقاء أو في حالة تأخره عن إحضار الماء. وغالباً ما تقوم بدور الرَوّايه ربة البيت نفسها، إذ إن القليل من الناس

بيت طيني قديم تتجلى فيه طريقة البناء بالعروق

(من أهل اليسار) يستأجرون أمرأة أو سقّاء لجلب الماء.

وتختلف مقاسات غرف المنزل؛ فأكبرها هو مجلس الرجال (القهوة) ويليها الليوان والذي يكون مفتوحاً من ناحيته الشمالية كمجلس في فصل الصيف، ومساحة القهوة تقريباً ١٠م×٦م ويجاورها الليوان ومقاسه ١٠م×٦م تقريباً، ويمكن هذا إذا وضع في الوسط عمود أي سارية، وتختلف المقاسات باختلاف المنزل، ويتحكم في ذلك خشب السقف الذي لا يزيد في الغالب عن ٤م (٨ أذرع) وأغلبه ٣م (٦ أذرع). والليوان يكون مفتوحاً من ناحية الشمال بالكامل عدا جدار بارتفاع متر تقريباً تزين حوافه بالزخارف الجبسية ويزخرف أعلاه بشرفات كالتي تحيط بسور المنزل العلوي ولكنها أدق وأجمل منها، ويمتاز الليوان بكمار من الجبس منحوت عليه أشكال فنية جميلة من الزخارف مكون من رفوف توضع فيها أواني القهوة والشاي بترتيب تزيده الدلال الصفراء والأباريق الملونة جمالاً وفخامة. إذ تبدو تلك الأواني لامعة وسط بياض الجبس المطرز بنقوش الحفر، سواء كان ذلك في ضوء النهار أو في الليل حيث الأتاريك المتوهجة.

ويتم تحديد زمن البناء قبل تحديد المكان، إذ إن زمن البناء مهم جداً، وهو فصل الصيف حين تتوقف الأمطار، لأن البناء من الطين، لذلك يجب مراعاة الزمن لهذا البناء لعدة أسباب ستتضح من خلال الحديث عن مراحل البناء.

ويتم تحديد موقع البناء في المكان المطلوب بعد تحديد زمن الابتداء. ويقوم صاحب المنزل مع المعلم (الستاد) أو (الاستاد) برسم المخطط، إما على الورق أو مباشرة على الأرض، يخطونه بأقدامهم ويضعون علامات للزوايا، هذا عندما تكون الأرض لينة، أما إذا كانت صلبة فإنهم يرسمون ذلك بالجبس، ثم يباشرون حفر الأساس، ويبدأ المالك بملاحظاته على البناء لأنه بهذا الرسم الذي تخيله تماماً، يخرج من غرفة إلى غرفة، وقد يطلب بعض التعديلات وفتح باب من هنا وإغلاق باب هناك، ويركز صاحب المنزل على مجالس الرجال (القهوة والليوان)، ويفضل أن تكون على يمين الداخل، وهكذا إلى أن يستقر على وضع نهائي للبناء. وبعد أن تتم الموافقة النهائية من قبل المالك يأمر الاستاد العمال بإكمال الحفر للأساسات النهائية بعمق متر تقريباً وعرض نصف متر وأحياناً متر، على أن يكون الحفر مستقيماً بقدر

المستطاع، حتى الوصول إلى العزا، وهي الأرض الصلبة التي تتحمل البناء بصرف النظر عن العمق. ويتم الحفر بمستوى واحد وبدون قواعد منفردة، إلا أن الأساس الدائري يعَّرض بالطين والحجارة الكبيرة وبعض الجمش مع الطين الذي يعد سلفا بتخميره مع التبن قبل يوم أو يومين من تنفيذ البناء. ومن ثم خلطه بالأقدام والمناسيف أي المساحي، واحدتها مسحاة (الماصولة)، والمسحاة من الحديد، ولها يد من الخشب، وهي ثلاثة أجزاء؛ حران المسحاة، وهو الحديدة التي يدخل فيها نصاب المسحاة، وريشة المسحاة، وهي الحديدة العريضة المذروبة في أسفل المسحاة، ونصاب المسحاة، وهو الخشبة الطويلة في حدود ٨٠سم تقريباً وتدخل في الحران.

ويكون الخلط بالمناسيف والمساحي إذا كان البناء صغيراً، أما إذا كان البناء كبيراً كالقصور والأسوار الضخمة التي تحيط بالمدن والقلاع فإن خلط الطين والتبن يتم بواسطة الدواب وخاصة الإبل، وحتى في هذه الحالة لا يُستغنى عن خلط الرجال للطين والتبن، ويلزم اختيار الطين من النوع الجيد، من المواقع المعروفة بجودة طينها وقوة تماسكه في البناء.

وفي بعض المواقع القريبة من الأودية التي تكثر فيها السيول أو المواقع ذات الطبقة الطينية الجيدة، فإنهم يرصفون الأساسات بالصخور بارتفاع متر إلى متر ونصف لمقاومة السيل، ثم يبدأون ببناء بقية المنزل بالطين.

ولا شك أنه سيتبادر إلى الذهن سؤال عن الحصول على المواد الأولية للبناء، خاصة الطين الجيد. والواقع أن لكل منطقة أو مدينة في المملكة أسلوباً في البناء ومواده، حسب توافرها في البيئة المحيطة بمنطقة البناء. فالمنطقة الشمالية تتوافر فيها الصخور الصلبة، والطين الجيد المتكون من تراكم الترسبات التي تجلبها السيول من الجبال إلى القيعان والتي تراكمت منذ عهود قديمة على سطح الأرض أو تحت سطح الأرض.

وهناك أشجار النخيل، والأثل والطرفاء والطلح، والمنتجات الزراعية مثل التبن، الذي يستخدم خليطاً مقوياً لتماسك التربة الطينية.

ومن هذه المواد اليسيرة قام الإنسان بإنشاء مدن كبيرة، وقام بتعمير مساكنه بإتقان وبراعة لتلائم المناخ الذي يعيش فيه، وتتحمل تقلبات الأجواء الصحراوية لمئات السنين، تقاوم الحر والبرد والمطر والجفاف، ولا تزال بقاياها شواهد ماثلة للعيان.

إعداد الطين للبناء. ومنذ ذلك الزمن البعيد وإنسان هذه الأرض يسلك الطريق نفسه لتعمير مسكنه، يذهب إلى المطاين بدابته أو على كتفه يجلب الطين، فبقرب كل مدينة مكان للطين يسمى مطاين كما تسمى مقطة، وهي طبقة من الطين تحت القشرة الأرضية يكشف عنها ويقط (يقطع) منها الطين الجيد. وعادة تكون المطينة في البيت نفسه وتجعل في الحوش، وبعد الانتهاء من البناء تجعل حويّطاً صغيراً به نخلة أو نخلتان ويوجه إليه سيل البيت. ويجلب الطين إلى موقع البناء في أكثر الأحيان على ظهور الحمير دون غيرها، حيث يسمى الكيس الذي يوضع عليها الوقر. وقد تستخدم الإبل أحياناً وتوضع عليها المناقل (واحدتها منقلة) لنقل الطين والحجارة، وهي كيس منسوج من الخوص بطول متر ونصف وعرض نصف متر تقريباً مفتوحة من أحد جوانبها بشكل طولي ليسهل تثبيتها على ظهر الدابة، وتعبئتها بواسطة المحافر - وهي الزنابيل الصغيرة، وبعد جلب الطين النقي من المطاين وتكديسه بجوار الموقع يبدأ العامل بخلطه مع التبن والبطحاء، وهذا العامل يطلق عليه اسم المثور، ويطلق عليه هذا الاسم لأنه يثير الغبار أثناء مزج هذه المواد ببعضها قبل أن يتم صب الماء عليها كما أسلفنا. وبعد أن ينهي مزجها يقوم بصب الماء عليها بعد أن يفرغها ويحوضها، أي يجعلها حوضاً، ويصب في وسطها الماء حتى تصبح بشكل إناء يحجز الماء بداخله إلى اليوم التالي، ويأتي بعده المواس أي الخلاط وهو الذي يمزج الطين بالماء ويموسه، ومن هذا المعنى أتت تسمية المواس، ويترك هذا المزيج لفترة من الوقت حتى يتبخر منه الماء ويصلب قليلاً، ثم يأتي دور الشذّاب وهو نفسه الخلاط الذي يقطع الطين بالمسحاة ويسحبه إلى جهة أخرى مع الدوس عليه بالأقدام. ثم بعد ذلك يعيده أيضاً بالمسحاة إلى المكان الأول ليزداد تماسكه، والخلاط عادة يقوم بهذه الأعمال كلها، فهو أولاً يموس الطين والتبن حتى يلين، ثم يقوم بشذب الخلطة ووطئها بقدميه حتى تزداد تماسكاً فتكون جاهزة للاستعمال، وقد يكون هناك أكثر من خلاط لكنهم يقومون بهذه الأعمال نفسها جميعاً. وجميع العمليات السابقة والتالية تقوم آلة المنساف بدور كبير ومهم فيها، وقد نسي هذا الاسم وحل محله الاسم الأجنبي شيول أي مسحاة. والشذب هو القطع دليلاً على تصلب الطين وتجمده، والطين لا يمكن شذبه ما لم يجمد بعد موسه، أي أن له مراحل متتابعة، ويأتي

بعد الشَـذَّاب دور الوطاي الذي يخلط الطين بقدميه، حتى يصير كالصلصال، ويكون جاهزاً للملبق الذي يجلس بجوار خلطة الطين ويحمـل بيده الملباق لقطع الطين على هيئة نقث أو لباقات ووضعها في زنبيل، والمـلباق هو منساف صغيـر الحجم قصير العصا بحيث لا تزيد عن الشبر أي ما يقارب ٢٠سم.

البنـاء بالعروق. ومهـمة الملبق هي تجهيز اللباق (النقث) وهي كتل من الطين كروية الشكل يعدها الملبق للعمال الذين ينقلونها بأيديهم كل كرة بيد إلى المعدي الذي يناولها بدوره إلى الزقّاف، والزِقاف يعني الشَمْر وهو رفع نقثة الطين أو اَللبنة في الهـواء باتجاه العامـل الموجود على السـلم ويسمـى مزوري، وهذا بـدوره يشمرهـا أي يقذفها بدوره إلى الـلقاف وهو مساعـد الاستاد الذي يردم الطـين أمام الأستاد مع بعض الحجارة الصغيرة عند بداية البناء، كما يقوم بقذف النقث إلى اللقاف أو المعلم الذي يجب أن يكون بارعاً في لقف اللبابيق المقذوفة باتجاهه، ووضعها على الجدار بالتساوي. وعندما يزيد ارتفاع البناء يأتي دور السلم الذي يوضع على الجدار وينتظم عليه عدد من العمال الذين يقومون بتعدية اللباق إلى يد مساعد الستـاد الذي يقف على قمة السلم ويقوم بإمداد المعلم بالطين مباشرة وبانتظام. وكلما ارتفع البناء دق، أي أنه يبدأ بعرض مـتر تقريباً وينتـهي بعرض ٣٠سم تقريباً.

هذه الـطريـقة هي طـريقـة البنـاء بالعروق، إذ إن الاستاد يقوم بوضع الطين مبـاشرة بعـضه عـلى بعـض بترتـيب ومقاسات ثابـتة وبطريقة فنيـة وبارتفاع محدد من ٢٠سم إلى٢٥ سم. ويكون البناء قائماً رأسياً، والاستاد يبني ويتراجع إلى الخلف طوال يومه إلى أن يتم الدورة الكاملة حول البناء خلال ثلاثة إلى أربعة أيام حين يكون البناء السابق قد جـف، ويبدأ من جديد في تواصل واستمرارية لا تتوقف إلا لسبب قاهر.

البناء باللِّبْن. هذا النوع من البناء شبيه بالبناء بالطابوق، حيث يتم تجهيز اللـبن مسبقاً بواسطة قالب يسمى الملبن أو الملبان أداة ذات شكل مستطيل تقريباً مصنوعة من الخشب، أطوالها (٤٠سم×٣٠سم بارتـفاع ١٥سم تقـريباً) ويكـون قابلاً للتحريك بعد وضع الطين بداخله، فيعبأ بالطين ويرفع عن الطين في حينه ويترك ليجف. والـلبنة هي الكتـلة من الطين توضع داخل الملبن ويضغط عليها بحيث يكون أسفـلها ٤٥سم×٣٠سم وارتفاع ١٥سم تقريباً، أما أعلاها فبحكم الضغط

عليها من جهات الملبن يكون ٤٠×٢٥×١٥سم تقريباً. ويقوم العامل بالضرب بكفه في وسطها ليترك فراغاً ليمسك الطين بها عند البناء، كما أن ضغط الملبن من أعلى يترك فراغاً على جوانبها يتم تعبئته بالطين عند البناء. وعندما يجف اللبن يبدأ البناء على طريقة البناء بالطابوق، وعادة يكون البناء باللبن للأسوار والأحواش الكبيرة وحوائط المزارع.

بناء الأعمدة. بعد إتمام بناء المنزل كاملاً يترك لكي يكتمل جفافه تحت أشعة الشمس، وفي هذه الأثناء، يأتي دور بناء الأعمدة (الأميال أو السواري)، التي يتم بناؤها بالحجر المشغول بشكل دائري، وتسمى الواحدة منها خرزة تنضد بعضها فوق بعض، وتشد بمونة من الجبس ويتدلى على مركز الميل من الأعلى خيط فيه ثقل لوزن ارتكاز الميل الرأسي، ثم تأتي عملية التلطيس، وهي سد الفتحات الموجودة بين اللبن، ثم بعد ذلك الصوبعه، وهي مسح الجدار بالطين والتبن وتترك آثار بالأصابع بما يشبه الطرطشة. ثم يأتي دور الشباع وهو مسح الجدار بالطين والتبن وجعله أملس كالتلييس.

التسقيف (الطمام). بعد الانتهاء من بناء العروق والأميال يأتي دور عمل السقف الذي يبدأ بوضع الخشب، وعادة يكون من خشب الأثل، وفي القليل النادر يكون من جذوع النخل المقسومة إلى نصفين بشكل طولي، وتسمى هذه الجذوع المقسومة إلى نصفين شطيب حيث يشطب جذع النخلة إلى شطبتين أي إلى قسمين، وتوضع مقلوبة إلى أسفل بحيث يظهر النصف المقسوم باتجاه الأرض بينما القسم الخارجي للشطيب يكون ناحية السقف، والغاية من ذلك هو منع التقوس إلى أسفل فيما لو وضع الجذع بالعكس. واستخدام جذوع النخل قليل في الأسقف، لأن للنخلة قيمة كبيرة لدى المزارع، وليس من السهل استخدامها، إلا إذا سقطت بسبب عاصفة أو في حالة الضرورة القصوى. أما الأثل فإنه يغرس ويهتم به لهذه المهمة، ولعمل الأبواب والأواني المنزلية والأشدة والأقتاب والحدائج. أما خشب السقف من الأثل فإنه يجهز في فصل الشتاء حيث يشتري صاحب البناء من الفلاح مقطع أثل كما يسمى ويقطع ويقوم بتشذيب الأغصان الصغيرة ثم يترك على أرض مستوية ليجف ويبقى مستقيماً دون اعوجاج، يقطّع في فصل الشتاء ليجف على مهل ولتجنب حرارة الصيف لئلا يتشقق، ويكون جاهزاً عند انتهاء البناء لوضعه

على السقف، ولا يُزال اللحاء عن الخشب، وذلك لضمان صلابته وبقائه أطول فترة من الزمن كما أن النمل الأبيض والقادوح لا يقترب منه ما دام عليه اللحاء؛ والقادوح دود يثقب الخشب، كما أشار إلى ذلك محمد القاضي بقوله:

به القطع للأشجار والأثل والنخل
يصلح عن القادوح وللدود عالق

وطريقة تركيب الخشب هي أن تقطع الخشبة من الطرفين حسب الطول المطلوب وتوضع على الجدار مباشرة بالنسبة للغرف الصغيرة، أما الغرف الكبيرة مثل المجالس والقهاوي والليواين، فتوضع الكواسير، وتسمى السواكيف واحدها ساكف، أولاً وهي من خشبتين كبيرتين متلاصقتين يبنى عليهما عرق أو عرقان من الطين ثم توضع الأخشاب (القواطيع أو الغمي واحدتها غماة) فوقها ليظل البناء قوياً على الرغم من اتساعه. ويوضع الخشب بطريقة متعارف عليها بحيث يفصل بين كل خشبة والتي تجاورها مسافة تتراوح بين ٢٠سم إلى ٣٠ سم.

وبعد الانتهاء من وضع الخشب وتثبيته، يأتي دور العسب التي يتم تجريدها من الخوص بواسطة السكاكين، أو المخالب الحادة، وبعد ذلك ترصف العسب (الجريد) متجاورة متعاكسة الاتجاه، بحيث يكون رأس الجريدة الأولى ملاصقاً لجذوة الجريدة الثانية، وتضفر العسب بالتناوب بحبال دقيقة مفتولة من ليف النخل تبدأ من اللطف الأول إلى اللطف الثاني المقابل، يقوم بهذه العملية ثلاثة رجال يلاصقون العسب بعضها إلى بعض بحيث لا يتركون بينها أي فراغات، ويكون اثنان في الجوانب فوق اللطف وواحد بالوسط، واللطف هو الزاوية التي تجمع السقف بالجدار القائم. وعملية رصف العسب بالحبال الدقيقة وتثبيتها بالقواطع الخشبية تسمى الحبك، وهو تثبيت العسب على الخشب بطريقة فنية تجمع الفن والإتقان في الوقت نفسه، بحيث تصبح الجرائد كالنسيج الضخم فوق الخشب، ومن ثم يفرش الخوص المجرود من العسب فوق تلك العسب التي نسجت فوق خشب السقف بشكل متوازن كي يمنع تسرب الطين أو الرطوبة إلى الأسفل، وبعد أن يفرش الخوص يوضع فوقه الطين وتثبت الميازيب (المرازيب) -وتسمى المثاعب واحدها مثعب- لتصريف مياه الأمطار، وهذه الميازيب تصنع من خشب الأثل، تنحت من الداخل بشكل نصف دائرة لتسهيل جريان المياه من السطوح إلى الخارج ثم

بعد ذلك يأتي ملط السطح بالطين والتبن ومسحه كالملياسة.

التشطيبات النهائية. هي عملية تبليط الحوش المفتوح بفروش من الأحجار الرسوبية، وتعمل المونة من الجص للربط بينها، أما داخل الرواق الذي تطل عليه الغرف فيتم تبليطه وتبليطها بالطين، إذ تصب الأرضية بالطين وتترك حتى تذبل، وقبل أن تجف تدك بواسطة حصاة ملساء ومستديرة الشكل تسمى المطبابه، يطبطبون بها على الأرض لتمكين الطين من التماسك والصلابة فيصبح قريباً من قوة الخرسانة الإسمنتية ويبقى لعدة أعوام، وتقوم النساء من أهل المنزل وأقاربهم ومن يتعاون معهم من الجيران بهذه المهمة. ثم يبدأ الجصّاص (المبيض) بعد الانتهاء من الشباعة بعمل الجص للأماكن المتفق عليها داخل المنزل وخارجه، ومهمة الجصاص هي أن يقوم بدور التجميل النهائي للمنزل، ومهمته شبيهة بدور المليس في الوقت الحاضر، ولكنه بالإضافة إلى عمل التلييس، يقوم كذلك بنقش الكمار ومداخل أبواب المجالس، وعمل أحزمة من النقوش الجميلة حول جدران القهاوي ورفوفها من الداخل. ثم يقوم الجصاص بعمل دوائر محفورة وبروزات ومثلثات بديعة ومتناسقة حول تيجان الأعمدة، ، وأحياناً يكتبون آيات من القرآن الكريم، وتواريخ إنشاء البناء. ومن الخارج يقوم بطلاء المداخل الرئيسية، وشرفات المنزل المزخرفة يتوجها بالجص الأبيض، فتعطي المنازل هيبة وجمالاً، فالشرفات التي تتوج وتحيط بالمنزل توحي للمشاهد بمجموعة من الرجال الجلوس بشكل منتظم ينم عن التلاحم والقوة. مما يعطي البناء الصورة الجمالية والشعور بالحياة والتضامن الاجتماعي. ويتبع ذلك تركيب الأبواب، وكانت كلها من منتجات البيئة من أشجار الأثل والنخيل وأحياناً الطلح، وأهم هذه الأبواب من ناحية القوة هو الباب الخارجي حيث يتسم بالضخامة والفخامة التي توحي بها ضِلافُه الرأسية والعوارض الخشبية البارزة والتي تضم الضلاف بمسامير لها رؤوس كبيرة محدبة، وهذه تضم العوارض إلى الضلاف وتمنحها متانة وضخامة، وينقش الباب بالكي بالنار، وتتوسط الباب حلقة من الحديد بارتفاع يسمح للإنسان بالإمساك بها والطرق على الباب طلباً للإذن بالدخول، وهي بمثابة الجرس في الوقت الحاضر. أما الأبواب الداخلية فينظر إلى شكلها وجمال النقوش عليها بألوان مختلفة ولا يهتم كثيراً بقوتها،

وتعمل لها أقفال من الخشب تسمى ضبة لها مفتاح من الخشب، ومزلاج يغلق من الداخل، وليس له قفل خارجي ولا يمكن فتحه من الخارج، لأن له قفلاً من الداخل ينغلق تلقائياً، بينما الضبة يمكن فتحها من الداخل والخارج بإدخال اليد والمفتاح معاً مع فتحة في مقدمة الباب يمكن من خلالها إدخال المفتاح في الضبة وفتح الباب.

تقاليد البناء. أما بالنسبة لما يرافق عملية البناء من العادات والتقاليد، فإن صاحب المنزل يقوم باختيار الموقع الذي يرتاح إلى ساكنيه، وكان الهم الأكبر هو هذا المثل الذي يقول «الجار قبل الدار»، إذ ليس من السهل إزالة البناء بعد الإنشاء، ويعتبر قرب المسجد من أهم الأسباب الداعية إلى الحرص على الموقع، هذا من ناحية الموقع، وعندما يبدأ العمل لليوم الأول فإن صاحب المنزل يقيم وليمة للعمال الذين يقومون بتنفيذ البناء لفترة الغداء، وبعد ذلك يقوم الجيران بتداول غداء العمال من اليوم التالي للغداء الذي أقامه صاحب المنزل إلى انتهاء فترة البناء، ويصبح صاحب المنزل مثله مثل أي واحد منهم لا يولم لعماله حتى يأتيه الدور، وتعتبر هذه العادة الكريمة من العادات التي يحرص عليها الجميع، والتخلي عنها يُعتبر منقصة في حق أحدهم، حتى الذين بينهم وبين صاحب المنزل مشاحنة يلتزمون بأداء هذا الواجب ويعتبرونه حقاً لا مناص لهم منه ولا يعذرهم كونهم في خلاف معه، ولا يمكن أن يتسامح أحد في أن يأتي عليه الدور دون أن يقوم بهذا الواجب وتسمى الموجبه أي التي لا بد منها مهما كانت الظروف، ومن القصص التي تروى عن التزام الناس بهذا العرف أن رجلاً قام بخلع باب بيته وباعه في السوق ليشتري طعاماً للعمال الذين يقومون ببناء منزل جاره، وهذا بلا شك منتهى الجود والالتزام بواحدة من صفات التكافل الاجتماعي وتقدير حق الجار الذي أوصى به الرسول ﷺ.

وكانت أجرة الاستاد ريالاً واحداً في اليوم، أما بقية العمال فلا تزيد أجرة الواحد منهم عن ربع ريال في اليوم، والخلاط قد تصل أجرته إلى نصف ريال لما يبذله من الجهد في عملية الخلط، ثم ارتفعت الأجرة في السبعينيات الهجرية إلى ٣٠ ريالاً للمعلم و٨ ريالات للخلاط والملبق، و٥ ريالات للعامل العادي، أما في القرى فإن الناس هناك لا يتقاضون أجراً على أي عمل يقومون به فيما بينهم بل يشاركون في البناء بدون مقابل، ومن العيب أخذ أجرة على مثل ذلك التعاون،

كما يساعدون صاحب البناء بتقديم الأخشاب والتبن وعسبان النخيل، إضافة إلى توفير الطعام للعمال، كما مر آنفاً، إلا أن صاحب المنزل يولم لهم في العادة وليمة بعد انتهاء العمل.

المباني في منطقة الشمال لها مميزات ولها جوانب إضافية، مثل الشكل المربع والمستطيل للغرف والمجالس، والشكل الدائري لمنائر المساجد، والأبراج، ومناظر الحرب. وقد تبنى البيوت من دورين أو ثلاثة أدوار، ولكن من النادر أن تبنى أدوار أكثر من ذلك. ويكون في الدور الأخير غرفة تسمى الروشن وأمامها غرفة مفتوحة من الناحية الشمالية لجلب الهواء البارد تسمى مصباح، والروشن والمصباح يعتبران ملحقاً يخصص للزوج والزوجة حديثي الزواج، وفي مقدمة كل دور توضع مطلات تسمى الكواتيل وهي التي تسمى الطرمه في نجد، تمكن المطل من خلالها رؤية المار في الشارع دون أن يتمكن المار من رؤيته، وهي شبيهة بالمشربيات، والمشربية بروز طيني يبنى أثناء التنفيذ على دعامات خشبية من الأسفل ويتصل من الأعلى بالبناء بشكل تدريجي إلى أن يندمج بالبناء. ولعل أصلها فصيح في اللغة، ورد في <u>اللسان</u> أنّ المُشْربةُ الغرفة، وقيل هي كالصفة بين يدي الغرفة، وفي الحديث أن النبي ﷺ كان في مُشربة له، أي كان في غرفة، وجمعها مشربات ومشارب. وتبنى معظم البيوت متجاورة بنفس الأسلوب. وتمتاز الجدران والسقوف بالارتفاع، حيث ترتفع في بعض الأحيان من ٥م إلى٦ م خاصة في المجالس (القهاوي)، وهذا الارتفاع له عدة أسباب يتطلبها النظام الاجتماعي، منها عدم كشف الجيران بعضهم لبعض، ولمنع الحرارة في الصيف وتوفير الدفء في الشتاء، وكذلك تسريب الدخان الذي يؤذي العيون من جراء إيقاد النار، إلى الخارج، وتوضع نوافذ قريبة من السقف. كما أنهم يفتحون نافذة في السقف فوق مشب النار (الكانون) مباشرة تسمى السوامه أو الفتاش أو النبر، كما في نجد، تغلق وتفتح بواسطة بكرة في الأعلى، وحبل يجذب فتنفتح ويرخى فتنغلق. وفوق كل مدخل من مداخل المنازل لا بد من وضع مشربية من الطين كما ذكرنا، وهي تقوم مقام العين السحرية تطل مباشرة على المدخل الرئيسي للمنزل، ويمكن للمطل التحدث من خلالها للطارق، وتستخدم في أكثر الأحيان أثناء فصل الصيف بسبب وجود أصحاب المنزل في السطوح للنوم والاستمتاع ببرودة الهواء.

بناء المساجد. تبنى المساجد بالأسلوب نفسه الذي تبنى به المنازل إلا أنهم يعتنون ببنـائها أكثر مـن ناحية الجـودة وتمكين السقوف ورصف الأخشاب واختيار الجيد منها، ويـعتنون أيضاً بالـعسب والطين وبطريقة الخلـط والبناء. وأكثر المساجد تبنى من طابقين، الطابق المعتاد، وطابق تحت الأرض يسمى الخلوة، والخلوة تقام فيها الصلاة في أيام الحر الشديد والبرد الشديد، لأنها باردة في الصيف، ودافئة في الـشتاء، والخلـوة أقل مساحـة من مساحـة المسجد. وتتـم العناية بـالمنابر وتزيينها بالجص الخالي من النـقوش إلا فيمـا ندر، وتفرش أرضـيات المساجـد بالبطـحاء والحصباء، وتكـون جدرانها المواجهة للقبلة كاملة البناء وبدون فتحات سوى فتـحات صغيـرة تسمح بدخـول الضوء لتـمكين الإمام من القـراءة، أما الجهة الأخرى فتكون مفتوحة بالكامل، ويعتمد سقفها على أعمدة متجاورة بين كل عمود والذي يليه ما يقارب ٥م إلى ٦م. أما بقية المسجد فتكون صحناً مفتوحاً تقام الصلاة فيه في أوقات الشتاء المشرقة، وكذلك فـي ليالي الصيـف. ويحرص الناس علـى التعاون في بناء المـساجد، والمنائر معظمها دائرية الشكل إلا القليل منها فإنها تكون مربعة، تضيق جميعها كلما ارتفعت إلى الأعلى إلى أن تـصل إلى قمتها، وجمـيع المنائر متصلة ببناء المسجد لا تنفصل عنه، وفي وسط كل منارة درج يمكّن المؤذن من الصعود إلى أعلى مكان يمكن الوقوف فيه.

بناء الأسوار. أما في الأسوار حول المدن والبساتين فتبنى البـوابات بالعروق وبشكل مرتفع، وأحياناً تسقف بعرض ٤م إلى٥ م حسب اتساع البوابة ليستريح فوقها الحراس ليلاً بعد إغلاقها، وتتكون أبوابهـا من درفتين (صفـاقتين) تسمـح بدخول الإبل بأحمالها. وتشيّد في بعض الحارات بداخل المدن جـسور تصل بين حارة وأخرى، وتجتاز الشارع إلى بيوت الحارة المجاورة وتكون هذه الجسور بين الأسرة الواحدة التي تفصل بينها شوارع.

والأبراج التي تسمـى أحياناً المناظر أو المراقب أو المرابيع، تبنى في أكثر المواقع بشكل دائري لتمكن أصحابها أو الحراس فيـها، وهم عـادة حادّو الـبصر، مـن مشاهدة جميع الجهات التي تحيط بالمكان، وأحياناً تبنى بـشكل مربع، وهي تتخذ للحراسة والمراقبة، ولا يكون فيها درج أو سلم يسـتعين به من يقـوم بالحراسة فيها ويتم الصعود إليها بواسطة أوتاد مثبتة في الحائط، أو حبل ينزله الحارس السابق للحارس الذي يأتي للحراسة من بعده،

وتكون الأبراج هذه من طابقين، الطابق الأرضي مرتفع السقف، والطابق الأول منخفض السقف، ويحيط بسطحها سور بارتفاع الإنسان.

والبساتين القريبة من المدينة يقوم أصحابها بتسويرها إما بالعروق أو باللبن وأكثرها تبنى باللبن، ويوضع لهذه الأسوار دعائم من الطين تسمى الكبوش، (واحدها كبش)، وهو بروز يتكىء على الحائط، وتبدو هذه الكبوش للرائي كأنها تناطح الحائط لتمنعه من السقوط.

وفوق الآبار تبنى سقائف لمنع نزول الأمطار إلى داخلها ولحماية عدة السَّني من الأضرار التي تلحق بها من جراء المطر، مثل الرطوبة التي تبلل قِدَّ الأرشية إذ توضع فوق الزرانيق والمقام سقيفة تغطي مقدمة البئر من ناحية المحاحيل والدراريج ومقدمة الطي.

موسم البناء. في فصل الصيف تنشط حركة البناء، ويبدأ موسم البناء بترتيب طبيعي يستمر طوال أشهر الصيف الحارة. فالبناء بالطين، والطين يحتاج إلى شمس حارة، وأجواء ليست ممطرة، وأيد عاملة متفرغة، وفي هذا الفصل يستطيع الفلاح قطع عسب النخل دون الإضرار بها أو بثمرتها، ولا يصلح قطع العسب في غير هذا الوقت، حتى لا تتضرر الثمار، ولأن قطع العسب في الشتاء لا يستفاد منه في البناء الذي يتم في الصيف. وكذلك الأثل الذي لا يمكن قطعه في الصيف واستخدامه مباشرة لأنه يكون ثقيلاً على من يحمله، وهو معرض للتقوس عندما يوضع على السقف وهو لا يزال طرياً، لكن قطعه في وقت الشتاء يجعله يجف بشكل طبيعي.

كما أن الطين يكون معرضاً للرطوبة، ولا يمكن حمله أو استخدامه في البناء في فصل غير فصل الصيف. ومثله الجص، الذي يصعب حرقه وتصنيعه في وقت الأمطار.

ومن هنا يتضح أن للبناء موسماً مثل بقية المواسم، فللزرع موسم، وللحصاد موسم، ولجني الثمار موسمه الطبيعي، ومن الضروري الالتزام بهذه المواسم، فكل شيء له وقت معين.

أغاني البناء وأهازيجه. الحداء يثير الإبل ويحفزها أثناء المسير، فكيف بالإنسان! لذا يقوم العمال في وقت البناء بالغناء الذي يساعدهم على تخفيف العناء وطرد الملل، وبث السعادة في نفوسهم، وهذا الغناء يهون عليهم العمل الشاق، ومن أغاني البناء عندهم قولهم:

يالله اليوم يارواف
يابا الافراج عاونّي

خـــوّفـــونـــي وانـــا مـــا اخـــاف
واحـســب الـضـلـع يـزبـنّـي
وانـــعـــولـــي غـــدن رهـــاف
والحــفـــا يــرعــب الجــنــي

وقولهم:

يـالـلـه الـيـوم يـاعـدال مـا مـالِ
تـرحـم الحـال يامـولاي وتـشـيـبـه
ترحم الـلي عن الديـره ماهو جالـي
إنْ بغـت تمحل أو تـخضر جوانـيبه

وقولهم:

يابن سالـم ترى قلبي عليكـم حزين
والسبب صاحـبي زعلٍ ولا ارضيتناه
صاحـبي ينقـش الحنا بـكف حسين
مثـل نقـش المطوع بـالقـلم والدواه

وقولهم:

هيض القلـب تالي الليل ذيبٍ عوى
يوم هـايق علـى المرحان زج الـونين
قـام يطـنب بـحسـه بايـتٍ الـقوى
ما درى ويـن شدّو العـرب منـتوين

وقولهم:

يـاسعـد ياضـنـيني ليـت يـاليـت
لـيت مـا شفـت منـسوع الجـديـله
ليـت ما قـربوا عـندي هـل البـيت
لـيت مـا حلـت الفـرقـا الطـويلـه